ثوابت ومتغيرات

بقلم غسان سلامة

يصعب على من اكتوى بنار قانا ان يشارك في التضرعات والصلوات المقامة في واشنطن وباريس وغزة والرباط، لكي يحالف الحظ شمعون بيريس في انتخاب اليوم، فيبقى رئيسا لوزراء اسرائيل. واكثر صعوبة، لأي عاقل، ان يعتمر ازدراء اللامبالي، فيقول، مع بعض العرب، ان بيريس ونتنياهو وجهان لعملة واحدة، وان الموقف العربي الامثل هو في تجاهل "فخّار يكسر بعضه". فالواقع اننا جميعا معنيون بنتيجة الاقتراع الاسرائيلي، وان منعنا جرحنا المفتوح، او كبرياؤنا العتيقة، من الاقرار بذلك. والصحيح ايضا ان ذاك الاقتراع لن يمس ببعض الثوابت الاسرائيلية الراسخة، بينما هو يحسم في عدد من المتغيرات المهمة.

اما الثوابت، فأولها ان اقتراع اليوم لن يغير شيئا من قدرة اسرائيل الهائلة في المجال العسكري، فميزان القوى المائل بشدة لمصلحة اسرائيل، سيبقى لغير مصلحة العرب ايا يكن الفائز بالانتخاب. فالحرب التقليدية اصبحت ممنوعة على العرب منذ سنة ١٩٧٣ ولسنوات طويلة بعد اليوم، وخيار الحرب هو في حوزة اسرائيل وحدها وان لم تلجأ اليه. اما خيار التسوية فما ولجته اسرائيل الا وقد استقوت بتفوقها العسكري المتزايد يوما بعد يوم. ويتنافس بيريس ونتنياهو على الوعد بابقاء الآلة العسكرية الاسرائيلية على تفوقها النوعي لسنوات وعقود. لذا اكثر "الليكود" من الجنرالات على لائحة مرشحيه، بينما كسر بيريس قاعدة قديمة بأن اعترف بتملك اسرائيل السلاح النووي مدعيا عن حق أبوته للقنبلة الذرية ومذكرا بانجازه "التاريخي" المتمثل في انشاء اول مفاعل نووي في ديمونا عشية حرب السويس.

ثاني الثوابت علاقة وطيدة مع الولايات المتحدة لم يتمكن اي طرف عربي، مهما وثّق علاقاته بواشنطن، ان يضعفها او ان يحظى بما يشبهها حتى من بعيد، فحتى لو جاهرت اميركا بتفضيلها بيريس، فأغدقت عليه المساعدات الكثيرة عشية الانتخابات، فان تلك العلاقة المميزة باقية أيا يكن الفائز. ليس لأن نتنياهو اميركي المسلك والمنطق الى حد انه فكر يوما بالحصول على الجنسية الاميركية، او لأن له بين يهود اميركا البارزين مؤيدين وانصارا فحسب، بل لأن تلك العلاقة ثابتة في رحم الاستراتيجيا الاميركية لا تمر بها الغيوم الا نادرا ولا تغير، حين تمر، من طبيعتها الثابتة فهي اقرب الى التداخل والتمازج بين طرفين منه الى التحالف والتضامن بينهما. ويبدو ان هذه القاعدة قد سكنت اذهان القادة العرب في القاهرة

– التتمة في الصفحة ١٨ –

◄ ثوابت ومتغيرات

– تتمة المنشور في الصفحة ١ –

وعمان وغزة، حتى ذهب بعضهم الى الاقرار بأن طريق واشنطن تمر بالضرورة بتل ابيب. ويسعى قادة اسرائيل، على تنوع ميولهم، الى جعل العواصم المتلكئة في قبول هذا الواقع او المجاهرة في رفضه، من بيروت الى دمشق، ومن بغداد الى طهران، تقر به وتعمل بموجبه.

ثالث الثوابت اقتصاد متين شهد في السنوات الاخيرة نموا متسارعا بوتيرة ٧ او ٨ في المئة سنويا، مما وضع اسرائيل في مصاف دول المعجزات الاقتصادية في آسيا. فالصادرات الاسرائيلية تفوق ثلاثة اضعاف مثيلاتها المصرية، والبطالة في اسرائيل، على رغم وصول ٦٥٠٠٠ من المهاجرين الجدد بدءا من سنة ١٩٨٩ من الاتحاد السوفياتي سابقا، هي دون نصف نسبتها في اوروبا الغربية. والبورصة هناك في ربيع دائم منذ سنوات بينما فتح جو التسوية مع العرب ابوابا كانت موصدة للصادرات الاسرائيلية المدنية والعسكرية في الصين والهند واليابان ناهيك بتسلل متزايد للمنتجات الاسرائيلية الى بعض الاسواق العربية، وتشجع تفتت المقاطعة العربية الشركات الدولية الكبرى على انشاء مصانع لها في اسرائيل، بينما يتوالى توافد الرؤساء الاجانب من آسيا الوسطى وافريقيا على اسرائيل لدعوة ارباب العمل فيها الى الاستثمار في بلدانهم بينما سمحت لقاءات الدار البيضاء وعمّان (والقاهرة في خريف هذه السنة) للتجار والصناعيين بالبحث في مشاريع مشتركة مع زملائهم العرب. ودفع هذا النمو الاقتصادي الواسع ارباب العمل الاسرائيليين الى تفضيل بيريس في اكثريتهم الساحقة بصفته المنظر الاول للتسوية، والداعم الاول لهذه البحبوحة المستجدة. غير ان هذا التفضيل لا يعني البتة ان فوز خصمه الليكودي سيغير كثيرا من وتيرة النمو العالية ولا من تأييد اكثرية ارباب العمل للسير قدما في التسوية مع العرب.

وهذا الميل صورة عن الثابت الاسرائيلي الرابع وهو ان اسرائيل ستستمر تعمل لتحقيق التسوية مع جيرانها أيا يكن الفائز في اقتراع اليوم. والمؤشرات على هذا الثابت كثيرة كمثل التحول في موقف الليكود من المعارضة المطلقة لاتفاقات اوسلو الى اعتبارها ملزمة لاسرائيل والى تعهد عدم العودة عنها، او كتأكيد الخصمين المتصارعين ان الاتفاقات الموقعة حتى الان نهائية. فالواقع ان نسبة المؤيدين للتسوية في اسرائيل اوسع بكثير من عدد مناصري بيريس. اذ تشير كل استطلاعات الرأي هناك الى ان ٣ من اصل كل ٥ اسرائيليين يؤيدون استمرار السعي الى التسوية مع العرب وان تنوعت مواقفهم من الثمن الذي ينبغي عليهم ان يدفعوه في مقابل حصولهم عليها. وأيا يكن الفائز في اقتراع اليوم، فهو يعلم تماما ان السعي الى التسوية مطلب اميركي دائم، وانه خيار تؤيده اكثرية الاسرائيليين، وان الوقت، الحالي مناسب لاسرائيل كي تعمل لتحقيقه. ويعلم الفائز ايضا، ايا يكن، ان العمل للتسوية في المنطقة شرط من شروط استقرار الانظمة العربية المجاورة التي اختارت التطبيع مع اسرائيل والصداقة مع اميركا. كما يعلم انه الدواء الملائم لكبت الميل الى الانتفاض لدى الفلسطينيين ولوقف الجنوح نحو التطرف في الاوساط الشعبية العربية. بكلام اوضح فاننا نتوقع من بيريس، ان فاز، ان يعلن قرارا فوريا بتنشيط التفاوض على كل الجبهات الديبلوماسية المفتوحة. ولا ننتظر من نتنياهو اقل من اعلان تمسكه المبدئي بالسعي الى التسوية مع الجيران. فمهما تنازع قادة اسرائيل حول مضمون تلك التسوية او حول الثمن الذي ينبغي دفعه للتوصل اليها، فان التسوية في ذاتها هدف استراتيجي تكاد النخبة السياسية والعسكرية والمالية في اسرائيل تجمع عليه.

ان كان الامر كذلك، فلماذا نهتم اذن باقتراع لن يغير من هذه الثوابت؟ ان اجتمع الخصمان على تعزيز تفوق اسرائيل التكنولوجي، وعلى تمتين نموها الاقتصادي، وعلى تعميق تداخلها مع الاستراتيجيا الاميركية وعلى اعتبار التسوية هدفا في ذاتها، فماذا يعنينا من فوز هذا وفشل ذاك؟ أوليس ليكوديا من وقّع أول تسوية مع بلد عربي في اتفاق كمب ديفيد؟ أوليس عماليا من أمر بالأمس باغتيال المهندس عياش وبعض المدنيين في لبنان؟

كل هذا صحيح، ولكن لا ينفعنا في شيء اعتناق اللامبالاة ولا تصنّعها. فاقتراع اليوم يحمل ايضا في طياته متغيرات لا يحق لنا تجاهلها، اولها ان نتيجة الانتخاب ان لم تعدّل في قرار اسرائيل المبدئي بالتسوية، فانها تمس بصورة أكيدة في مضمونها المرتقب ووتيرة السعي اليها.

* * *

والواقع ان اقتراع اليوم يحمل سيناريوهات اربعة مختلفة. الاول فوز بيريس برئاسة الحكومة وفوز حزبه بأكثرية مريحة في الكنيست. الثاني فوز نتنياهو برئاسة الحكومة وفوز الليكود بأكثرية مقاعد المجلس. الثالث فوز بيريس برئاسة الحكومة في مقابل فوز الليكود بأكثرية مقاعد المجلس. والرابع فوز نتنياهو برئاسة الحكومة وحصول العمال على اكثرية المقاعد في الكنيست. والحريصون على تعجيل وتيرة التسوية يفضلون طبعا السيناريو الاول، اما المعارضون لها فتفضيلهم للثاني. لكن هذه القراءة قد لا تكون واقعية تماما.

ذلك ان فوز بيريس وحزبه معا من شأنه ان يعجل التسوية لان في تلك الاكثرية من نواب اليسار (ميريتس) والعرب ما يكفي لمنع بيريس من العودة عن سعيه نحو التسوية. ان لم يتم ذلك، فالسيناريو الثالث قد يؤدي، ولو بمقدار من التأخر الى النتيجة نفسها: فمن الاسهل لرئيس حكومة اسمه نتنياهو ان يعتمد على اكثرية ملتبسة من العمال ومن بعض مناصريه وان تبنّى مشروع بيريس للتسوية، من ان يسعى اليها اذا كانت اكثرية المقاعد في الكنيست من نصيب الليكود الذي سيطوقه بالمطالب والشروط المتشددة. ونحن نرى بالتالي ان من حق مناصري التسوية ان يترقبوا فوز بيريس وانما عليهم الاقرار بأن نوعية الاكثرية في الكنيست (التي سينضم اليها افرقاء متنوعون من التكتلين المتنافسين توازي وقد تفوق في الاهمية هوية الفائز برئاسة الحكومة.

فان كان بيريس دافعا للتسوية فان نتنياهو ليس اكبر العقبات على طريقها. فزعيم الليكود براغماتي، يميل بوضوح نحو الانتهازية، ويبدو على استعداد للتأقلم مع الظروف وفق توافرها ويقيني انه لو فاز برئاسة الحكومة فهو سيسعى للتلون المناسب مع الجو المهيمن على الكنيست وفي اسرائيل وان تطلب الامر منه ان يتخلى عن خطاب مهووس بالامن وبروح التفوق العربي. لكن التسوية ستصبح اصعب بكثير، ايا يكن رئيس الحكومة، اذا فاز الليكود بأكثرية المقاعد وراح الخليط الواسع الذي يتكون منه هذا الحزب يزايد في تطرفه القومي والديني على الحكومة ورئيسها. وستكون التسوية صعبة ايضا (ولو بمقدار اقل) ان تفتتت المقاعد وتوزعت على العشرين حزبا التي تتنافس على تلك المقاعد.

ولن يكون آنذاك من مخرج الا بالعودة الى الاقتراع (وهو امر صعب، يتطلب حوالى ستة اشهر لتحقيقه في الاقل) او باللجوء الى الاستفتاء الشعبي، وهو حل طرحه رابين وعاد اليه بيريس اخيرا ولكنه يعني انتقاصا لا سابقة له من وزن الكنيست في الحياة السياسية الاسرائيلية يجعل قبول الاحزاب به امرا شاقا ولو لم يكن مستحيلا. وفي كل الاحوال، فان عدم توافر اكثرية عمالية في الكنيست المقبلة سيؤثر في الاقل سلبا على وتيرة التفاوض ويدفع بالتسوية الى مواعيد ابعد في الزمن.

اما في مضمون التسوية، فنتيجة الاقتراع مهمة ايضا ففيما يخص الفلسطينيين، فان نوعا من التوافق داخل النخبة الاسرائيلية قد تم على مبدأ الفصل البشري بين الشعبين. ولكن بينما يرى الليكود (وبعض قادة حزب العمل مثل ايهود باراك وحاييم رامون) ذاك الفصل كشكل من اشكال "الابارتهيد" (فصل عرقي مع سيطرة امنية واقتصادية تامة لاسرائيل على المناطق الفلسطينية) يجنح بيريس ومعظم مرشحي العمل للقبول بنوع من الكيانية السياسية الفلسطينية. وبينما يتنافس الخصمان على تأكيد الود نحو الاردن، فانهما لا يبديان استعجالا كبيرا في التوصل الى تسوية مع سوريا ولبنان. ويبدو الرأي العام الاسرائيلي كأنه الحكم في الموضوع الفلسطيني، بينما تبدو المؤسسة العسكرية اثقل وزنا من هذا الحزب او ذاك في تحديد ملامح التسوية مع سوريا. وسيشهد الصيف المقبل، خصوصا في حال فوز مزودج لبيريس وحزبه، محاولة اسرائيلية جديدة للتقدم على المسار السوري، على التقدم في هذا المسار يعطي مددا اضافيا لحملة كلينتون الرئاسية في اميركا. وعلى رغم ان الاكثرية التي ايدت اتفاق كمب ديفيد كانت ليكودية، فمن غير المتوقع ان يقدم الليكود، في حال فوزه بأكثرية الكنيست، على تقديم تنازلات في الجولان مماثلة لتلك التي قدمها قبل عقد ونصف عقد في سيناء، اذ يعتبر معظم قادته ان ميزان القوى السياسي والعسكري يميل اليوم لمصلحة اسرائيل الى درجة انه لم يعد هناك ما يرغمها على مساواة سوريا بمصر في موضوع الانسحاب، بينما يبدو معظم مرشحي العمال اكثر استعدادا للقبول بمبدأ المساواة هذا.

لن يغير الاقتراع من مبدأ السعي الى التسوية ولكنه سيؤثر في العمق على وتيرتها ومضمونها وبالتالي على حظوظ تحققها لان مضمونا ناقصا للتسوية لن يكفي لجعل دمشق وبيروت والعواصم الاخرى تقبل بها. فالتسوية كالدراجة، ان لم تعمل قدمك بها دون توقف، سقطت الدراجة وهوى راكبها والقادة العرب الذين انخرطوا حتى اليوم في التسوية يدركون تماما خطورة هذه القاعدة. فهم مقتنعون ولا شك بجنوح اسرائيل نحو التسوية، ولكنهم يعلمون ايضا ان تجميد المفاوضات، او التأخر في سيرها، او تعقّد التركيبة السياسية الداخلية في اسرائيل، عناصر خطرة على استقرار انظمتهم. فهم لا يريدون التسوية فحسب، بل يريدونها بأسرع وقت ممكن ويتخوفون من "ديموقراطية" اسرائيلية يؤخر موعد تحققها. في المقابل يتميز الموقف الاسرائيلي والسوري على السواء بمقدار لا بأس به من القدرة على تجاهل عنصر الوقت وعلى عدم اعتباره عنصرا ضاغطا مما يجعلهما يركزان، كل من وجهة نظره طبعا، على مضمون التسوية العتيدة، لا على الاسراع في انجازها بأي ثمن.

لكن الناخب الاسرائيلي لا يقدم على كل هذه الحسابات وهو متوجه الى صندوق الاقتراع. بل تسكنه في الارجح متعة الشعور بأنه قادر، كمواطن وكناخب، على التأثير على التوجهات السياسية العليا في دولته، (وهو امر يجاهر عدد من العرب الان على حسده عليه). وقد يسكنه ايضا هاجس عميق حاد بضرورة الاختيار لا بين التسوية ورفضها فحسب، بل بين صورتين مختلفتين لاسرائيل تعمق تناقضها: صورة من الماضي لدولة متفطرسة في قوتها، مهووسة بأمنها، تنظر الى محيطها بعين القمع والتفوق والاستبداد، وصورة اخرى، لم تكتمل معالمها بعد، لدولة كمثيلاتها من الدول، عادية، طبيعية، متصالحة مع ذاتها ومع الجوار. وليس اقل دواعي القلق ان يحمل صورة الماضي شاب اسرائيلي في منتصف العمر اسمه نتنياهو بينما يسعى بصعوبة الى جلاء الصورة الاخرى كهل تجاوز السبعين اسمه بيريس.

غسان سلامة

النهار، ١٩٩٦/٥/٢٩